# مسح أولي لثقافة العراقيين

**علي حسين عبيد ***

لم يكن لي اطلاع فعلي على ثقافة الخمسينيات والستينيات أيضا، وقد وعيت هذه الأجواء في مطالع السبعينيات عندما حاول المثقف العراقي، والأديب بشكل خاص، أن يبني ثقافته على وفق رؤية إنسانية متحضرة مستمدة من جذور الثقافة العراقية والعربية الإسلامية والثقافات الإنسانية، وقد تأسس شيء من هذا القبيل وكان الأمل يحدو المثقف العراقي في خلق ثقافة رصينة متحررة لا سيما أن سياسيي ذلك العقد ممن تبوءوا السلطة أو ممن تشكلوا ضمن الأحزاب العراقية المعروفة آنذاك "ذرعوا للثقافة والمثقفين في الجنة" لكن سرعان ما انطفأ وهج الأمل وتشكلت الجبهة الوطنية سيئة الصيت واختزلت رؤى وأفكار الأحزاب السياسية في مسار واحد وهمشت من حاول أن يشب عن الطوق ثم أقصته وهكذا دخل المثقف العراقي والثقافة العراقية من جديد في معترك الصراع المزمن مع السياسيين وهو يحاول أن يتخلص من الشباك التي نصبت له عن قصد مسبق مما دفع بالثقافة والمثقف متعدد الوجوه نحو التراجع المتواصل صوب نقطة الصفر. وكما ذكرت وبعد فيركة ما يسمى بالجبهة الوطنية وبدء مسلسل التصفيات السياسية وصولا إلى نهاية عقد السبعينيات عندما ترسخ الفكر الشمولي وتسيّدت نزعة مصادرة الأفكار المضادة ساحة العراق السياسية مدعومة بانعكاسات الحرب العراقية الإيرانية التي بدأت مطلع العقد الثمانيني وما وفرته من ذرائع للقادة السياسيين ورأسهم في كبح جماح من "يغرد خارج السرب/ سياسي أو غيره" تحت ذريعة أمن الوطن وحماية الأرض والعرض وما إلى ذلك من تبريرات قادت بالنتيجة إلى تشديد نزعة المصادرة وترسيخ مبدأ السير في اتجاه واحد لا غير الأمر الذي انعكس على الواقع الثقافي بوضوح سافر، فمن تراجع إلى آخر، ومن كبوة كبرى إلى اخرى، والغريب في الأمر أن الأدباء والمثقفين الذين اصبحوا فيما بعد من طليعة المعارضين للنظام السابق انهم دخلوا اللعبة السياسية واستمرءوها وحصدوا ما حصدوا من مكاسب إلا القليل النادر من أمثال الجواهري رحمه الله الذي لم يسقط في الشباك، ولعل الخطأ الجوهري للمثقف والأديب العراقي يكمن في وعيه المتأخر لما حدث له وللثقافة أو صمته عن الخراب تحت الحاح المصلحة الذاتية، فكثير من مثقفي وأدباء العراق الذين حملوا راية المعارضة كانوا قد أسهموا بشكل أو بآخر في دفع غيرهم إلى المصيدة وكلنا يتذكر الهجرة شبه المتواصلة للمثقف العراقي قبل وبعد منتصف التسعينيات، أنها الصحوة المتأخرة بل "الصمت المطبق مع الوعي بالخطر" الذي يحدق بالذات وبالثقافة في آن، وهكذا تدنى الحال من أدنى إلى أدنى وساءت المؤسسة الثقافية لدرجة أن لا عودة عن الخطأ مطلقا، فالمثقف دخل اللعبة السياسية من أوسع أبوابها، أنها المتاهة التي يعي مهالكها تماما، ثم بدأت هذه الأبواب تغلق رويدها بعلمه أو بلا علمه وفي كلا الحالتين لم يعد ثمة مخرج، فأما الصمت المؤدي إلى الموت الفكري والثقافي وإما التمويه والمراوغة على خجل، وأما الهروب إلى المنافي، وهذه لم تعد نافعة أيضا، فكل ما ستفعلة كأديب أو مثقف هو الفرار بجلدك لكي تتضاعف سطوة الخراب على من تبقى في دوامة الجحيم العراقي التي لم تتوقف ولو لمجرد سحب الأنفاس، أما الذين تحدثوا عن البدائل كترويج كتب الاستنساخ أو ما كان يجري في الخفاء من مضادات أخرى فإنها لم تشكل مصدًا مهما لسيول الخراب التي اجتاحت كل شيء، لقد بدأ الخطأ ووضح الطريق الخراب عندما وعى المثقف خطورة المنزلق الذي يسير إليه ولم يفعل شيئا لنفسه أو لمن سيجيء بعده، كلهم أو أغلبهم كان ساهيا ومنجرفا مع الغنائم التي "عليه" أن يحصل عليها قبل غيره أو أكثر من غيره ومن تلا هؤلاء المثقفين فعل الشيء نفسه "لأن الأمراض الثقافية تنتقل بالوراثة" وهكذا صار المثقف والأديب والفنان سلعة تشترى وتباع بمال السلطان الذي هو مال الشعب ومنه المثقف بطبيعة الحال، إن الكلام عن عقود الانحطاط السياسي بمؤازرة الثقافي يفتح ألف جرح وجرح ولا يقود إلى الشفاء أو إلى صنع ثقافة عراقية جديدة، وما يحدث الآن من مصادرة للمثقف والثقافة ومن تداخل مرعب في الأدوار ومن لهاث مخزي وراء السياسي قد يبقي المشهد الثقافي في مرحلة الانحطاط إلى أجل لا يعلمه إلا المثقف نفسه!. يبدو أنني مغرم "بالتكرار" ومع ذلك، حين نسأل عن عودة الثقافة إلى ما كانت عليه، أي بمعنى أنها كانت مزدهرة، ولكن متى ازدهرت الثقافة العراقية؟، في أي عهد؟، ونحن هنا نستمد الكلام من صفحات التأريخ الحديث وليس من منشأ معايشة الواقع، هل ازدهرت في العهد الملكي أم في جمهورية عبد الكريم قاسم أم في عهد من تلوه من الجمهوريين؟، ألم تكن تلك السنوات مليئة بالاضطراب السياسي والاجتماعي والثقافي؟، نحن كأدباء سمعنا وما نزال نسمع بالجيل الستيني وتعلمنا بأنه نتاج واقع سياسي مضطرب متداخل ينطوي على نزعة رافضة، وجودية، تبحث عن الجديد لطمر القديم، وترى في التجريب سبيلا إلى خلق أدب وثقافة عراقية متحضرة تندمج مع ثقافة الآخر ولا تذوب فيها، إذا كان مشهد الثقافة العراقية الستينية يعد مزدهرا فما الذي تمخض عنه في نهاية الأمر، وإذا كان الجيل السبعيني نتاجا انعكاسيا له، فما الذي تمخض عن الجيل السبعيني أيضا، إنها ليست استنتاجات سوداوية وليدة الضغوط الراهنة أو التي سبقتها، ولكن هذا هو واقع التاريخ والحال في نفس الوقت، إن أساس الثقافة العراقية الحديثة وبضمنها الأدب، هو أساس بالغ الهشاشة ولذلك وقعنا جميعا في المصيدة، فلعاب الجميع "إلا ما ندر" كان يسيل من اجل أن يحصل على لقمة اكثر دسما من لقمة غيره، وهذا ما قادنا إلى الجيل الثمانيني الذي كتب مئات الأطنان من الورق تحت بند الأدب التعبوي، والحفاظ على ارض الوطن، قلة هم أولئك الذين تجنبوا الوقوع في فخ أدب الحرب ومنهم حميد المختار وعبد الستار البيضاني وحسن متعب الناصر، ولكن "ما الفائدة إذا كان المبخر واحدا والتسعة الآخرون يطلقون الغازات الفاسدة في فضاء الثقافة العراقية؟!"، والأدهى من ذلك سقوط الأجيال كلها في فخ الأدب التعبوي وخاصة من يتقدمون الركب من الستينيين وغيرهم!، ممن تورط وورط الآخرين معه بعد أن مهد الطريق "في تقبل هبات وهدايا السلطان" ثم فرّ إلى أرض الله الواسعة عملا بالآية الكريمة "واسعوا في مناكبها" مخلفا وراءه حشدا من المتورطين أو الصامتين أو المموهين وقلة من المعتقلين.

وخلاصةً، أقول أن ما سيتمخض عنه الوضع الجديد في ما يخص الثقافة والمثقفين سيبقى مرتبطا بجذور الثقافة العراقية الحديثة وما يتداخل معها من شوائب في الواقع العراقي إجمالا ويبقى الزمن واستنباط الدروس من الأخطاء هما المعبر الوحيد للمثقف العراقي وثقافة العراقيين نحو عصر ثقافي جديد مختلف يخلو من الخوف والتزلف والمراءاة وعبادة السلطان السياسي بعد عبادة مصلحة الذات.

* عن موقع "كيكا دوت كوم".

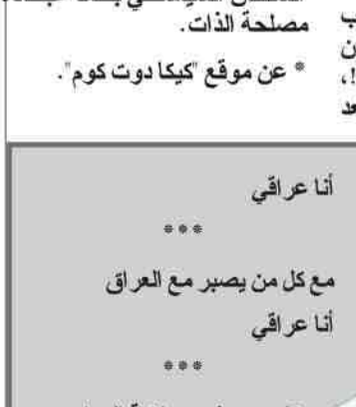

## خلاصة الشعر

صباح القس/ بغداد Sabah_ alkass@yahoo.com

**لعمري لقد لاحت عيون كثيرة**
**إلى ضوء نار باليفاع تحرّق**
**تشب لمقرورين يصطليانها**
**وبات على النار الندى والمحلّق**
**ترى الجود يجري ظاهرا فوق وجهه**
**كما زان متن الهنداواني رونق**
**يداه يدا صدق فكفٌّ مبيدة**
**وكفٌّ اذا ما ضنَّ بالمال تنفق**

هذه الأبيات للشاعر ابو بصير ميمون بن قيس المعروف بالأعشى وكان أعمى.

يضعه نقاد الشعر رابعا بعد امرىء القيس وزهير والنابغة. وأعتبر نقاد آخرون لاميته من المعلقات والتي يقول مطلعها:

**ودّع هريرة إن الركب مرتحل**
**وهل تطيق وداعا ايها الرجل**

عاش طويلا حتى أبيضت عيناه من الكبر، أدرك الاسلام وحاول الاسلام لكنه لم يسلم وكان لأبي سفيان يد في عدم اسلامه.

كان الأعشى من المتكسبين بالشعر لذلك جاء شعره في أغلب الأغراض. وشعره رائق حسن بأسلوب جميل مع حلاوة وطلاوة في الألفاظ وبراعة خاصة في وصف مجالس الخمر والطرب حتى سميّ صناجة العرب.

ولشغفه بالخمر ومجالسها فقد استغلت عائلة المحلق هذه الناحية فيه، وقد اخترت هذه الأبيات لأصل الى القصة التي من أجلها قال الأعشى هذه القصيدة.

تقول القصة ان للمحلق ثماني بنات، ولأنه كان رجلا فقيرا مغمور النسب والجاه فقد عنست بناته ولم يتقدم احد للزواج منهن. وفي يوم تواجد الأعشى في الحي الذي تسكنه العائلة فأقترحت المرأة على زوجها أن يضيف الأعشى عسى ان يقول فيه شيئا يرفع من ذكره وقدره. وهكذا تمت إستضافة الأعشى فنحر له الرجل الناقة الوحيدة التي يملكها وسقاه خمرا حتى اذا انتشى مدح الاعشى الرجل بهذه القصيدة والتي أنشدها في سوق عكاظ ايضا، فطارت شهرة العائلة والقصيدة بين العرب، ولم يمض عام حتى لم تبق واحدة من بناته الا وهي زوج لسيد من أشراف العرب.

في البيت الاول بيان أهمية النار لإستدلال الضيف خاصة في الليل، واليفاع اسم منطقة.

في البيت الثاني استخدم الشاعر النار للتدفئة وهي من ضرورات الشتاء والمقرورين هما البردانين ويصطليان بمعنى يتدفآن. ومعنى هذا ان المحلق لا ينام ليله فهو بإنتظار الضيف لذلك بقي ساهرا مع الندى "الكرم" أي ان المحلق والكرم مستعدان لإستقبال الضيف.

في البيت الثالث يظهر الشاعر جود المحلق الذي يظهر على وجهه عند قدوم الضيف. والهنداوائي هو السيف.

في البيت الرابع توكيد الكرم مع الشجاعة، فالكف الاولى هي كف الشجاعة المبيدة المقتدرة. والكف الثانية هي كف الكرم التي تنفق.

والسؤال هنا من الذي كان اكثر كرما؟ هل هو المحلق حينما نحر ناقته الوحيدة وأطعم وسقى الشاعر الأعشى؟ أم الشاعر الأعشى حينما مدح هذا الرجل فرفع من شأنه ووضع اسمه في سجل الخالدين.

## أنا عراقي أنا عراقي أنا عراقي

**موشي داود ـ السويد**

منذ أن كان الله يرفرف على أنهار الجنة دجلة والفرات
أنا عراقي..

***

منذ أن كانت النخلة المقدسة شجرة الجنة
أنا عراقي

***

قبل ان تولد الشمس
أنا عراقي

***

قبل ان يبشر المجوس بميلاد المسيح
أنا عراقي

***

قبل أن ينادي بلال الحبشي
أنا عراقي

***

منذ أن كان لالش ونيركال في مدينة الطوبى
أنا عراقي

***

منذ ان كان المندا وكنزا ربا يعمذ أبناءه بمياة النهرين المقدسة
أنا عراقي

***

منذ أن بحث كلكامش عن عشبة الخلود لصديق ليبقى عراقيا
أنا عراقي

***

منذ أول حلم للطيران وإيتانا على ظهر النسر ليحصل على سبعة الواح القدر ونستمر معه للخلود والى الأبد كعراقيين
انا عراقي

******

من ديالى والنجف وكربلاء والكوفة العامرة برفاة القديسين والصالحين
أنا عراقي

***

من البصرة وميسان والناصرية ومن اول نبي في العالم
أنا عراقي

***

من أنبار وتكريت المحبة وسُر من رأى ونسر كل من يرى العراق أننا واحد موحد
أنا عراقي

***

من أول باب الآلهة
إلى باب قرداغ إلى نوهدرا
أنا عراقي

***

من أول حرف وأول رقم وأول قلم وأول مدرسة
أنا عراقي

***

منذ ان كانت كركوك نار الآلهة الأزلية..
أنا عراقي

***

من الوريد الى الوريد ومن الشريان الى الشريان
أنا عراقي

***

مع كل من يصبر مع العراق
أنا عراقي

***

مع كل من يبشر بسلامة العراق
أنا عراقي

***

مع كل من يخدم العراق
أنا عراقي

***

مع كل من يحب ويريد أن يشرق نور الأمل على اطفال وايتام العراق
أنا عراقي

***

مع كل من يحب العراق
أنا عراقي

***

مع كل من يؤمن بالعراق
أنا عراقي

***

مع كل من يعيش العراق في قلبه عقله روحه
أنا عراقي

***

ولدت عراقيا أعيش عراقيا.. أموت عراقيا.. وأبعث عراقيا.

## بيانات لجسدها

**شاكر سيفو**

يقيمون لها زفافا من البياض

***

مضت بثدييها الى رحيق ذكورته

***

تهبط بظلال جسدها لتشرق في حقائب الغبار

***

ترشده الى قمر معلق يدر حياة لها

***

تصل النهر بفمها لتحتفل بالحياة وبه

***

تقشّر هواء التفاحة وتتذكر فحولة آدم

***

تخبىء شرشفا للوقت وتعترض دقائقه

***

يتسع جسدها لسرير يُوَثّم قبابا

***

تحمل جنازته وتهيل عليها ترابها

***

لا تزال ترضع من تنور النجمة

***

ترحل مع الجنازة وتعود به رائقا

***

وحينما كانت تبكي، كانت دموع القصيدة تنهمر على خديها

***

تأكل من مائدته وتسرق حدقتيه

***

تزهو ببراعة الابد وتخبىء أزهار الألم

***

تختار ملائكة من حقل البنفسج لرقصة قادمة

***

تفتح في الليل كوّة لشمس زواجها

***

تدور بكوكب مهجور في ذيل مكيدة

***

تخضر شفتاها في خيانة الماء والعسل

***

ترى الى ملاك عاطل في متحف العالم

***

تصطاد فراشتها الضائعة منذ كهربائيات الجسد

***

تستنجد بالدهشة في احتفال الكواكب على ظهر بلوتو

***

تتلهى بالفتنة في حوض "السباسمك"

***

ترتل صعودها في عناق النهارات

***

تمحو أنين الفراغات في عناقها مع الدقائق الخضر!

***

تحتمي برذاذ النشيد في نقاطه المنعكسة على لعاب الغيمة

***

السحاب وقت معطل في روزنامة الصيف، سحاب جسدها

***

تمضي بجسدها الى الموسيقى بفسفوره!.

# حوار حول جدل العلاقة بين المثقف والسلطة/ ١

**صفاء ذياب ـ بغداد**

الثقافة موضوع مثير للجدل في أي وقت ومكان، منذ ان ابتلع أرسطو السم، وأجبر غاليلو على إنكار دوران الأرض إلى ان تحسس احد الساسة مسدسه ما ان سمع بكلمة ثقافة.. وعلى الرغم مما أثارته العلاقة من تأملات وبرغم كل ما كتب وقيل، فإن الموضوع خاضع لزوايا النظر المختلفة التي تضيء كل مرة تتناوله شيئا جديدا يمكن ان يؤشر علامات في الطريق الشائك إلى المعرفة. قد تختصر علاقة المثقف بالسلطة شكل العلاقات القادمة بين الكائن والكائن وبينه وبين الأشياء، خاصة إذا نظر إليها على انها قوى متفاعلة. لهذا، وخصوصا وأننا في العراق نمر بأخطر أزمة عرفها هذا البلد، وهو تهميش المثقف إلى درجة لا يمكن معها قول كلمة مسموعة واحدة له، لأسباب سياسية، على مستوى الأحزاب التي بدأت بهضم جميع الخراف المزروعة على جانبي الطريق، على رأي بارت، مرورا بالتسلط الديني الذي وصل ذروته الآن كما لم يصلها من قبل.

**دولة من دون برنامج ثقافي**

يرى الفنان والناقد التشكيلي خالد خضير صلتهم مع الثقافة صلة واهية أو معدومة.

الخلل إذن بنيوي مستديم، وهو في الوضع العراقي يكتسب مزيدا من السوء نتيجة سوء الأوضاع، وكلما غابت سلطة القانون وغابت إمكانات وفعالية النشاطات الثقافية التي غالبا ما تمول الدولة جزءا ضخما منها فستسوء العلاقة أكثر بين السياسي والمثقف وتزداد أزمة المثقف تعقيدا، ويزداد حاله انسحاقا أمام قسوة الحياة وتردي الأوضاع الاقتصادية في دولة لا تعده جزءا من مشروعها.

**العرف، الدين والسياسة**

* يرى الكاتب عباس منعثر إن المثقف العراقي معرض لرياح سلطات متعددة كالعرف، الدين والسياسة، قائلا عن الأولى: "لو بقيت الأعراف كنتاج اجتماعي لكان بالإمكان توجيه النقد والتعرية بشكل سلس.. لكن العرف تحول إلى سلطة قوية تغلغلت في السياسة والدين والإدارة والصحافة إلى درجة تحولها إلى صانع حياة لا يمكن التحاور معه بسهولة. فتقلص قدرة الفرد على التحرك بحرية وتقبل الاختلاف والنظرة القاصرة للمرأة وتعميم أسلوب حياة معينة على أساليب الآخرين وإرغامهم على تقبلها والعمل بها، إذ تحولت إلى قوانين صارمة لا يمكن تجاوزها".. وعن علاقة المثقف بالسلطة الدينية يقول:"بسبب التأييد الشعبي لرجل الدين، يكاد موقف الحذر أو الإعلان المتوجس هو المهيمن. فلا يمكن لشخص اعزل لا يملك إلا الحبر والورق أن يتورط في مواجهة غير متكافئة مع طغيان الحماسة الشعبية للدين بشكله السياسي، تنبري بعض الأقلام الليبرالية من حين إلى آخر للإعلان عن صوتها المضاد لتدخل الدين في السياسة أو لتجيير الدين لصالح هذه الجهة أو تلك، لكن العقبات كثيرة: صوته في خضّم الأصوات الأخرى غير مسموع، والوعي الاجتماعي غير قادر على تقبل أطروحاته، وهو من دون سند يحميه أو يؤازره، ووسائل الإعلام لها أجندتها الخاصة إلا ما ندر، وأخيرا امتلاك الوعي المضاد للقوة وللقدرة على استخدامها متى يشاء، كل ذلك ينقص المثقف الليبرالي".. أما عن علاقته بالسياسي فيقول: "السياسي قادم مباشرة من الأيديولوجي أو النفعي، والمثقف الحقيقي ناقد يسعى إلى الكشف والتعرية والاستقلال. في الشرق خاصة لا يتحقق ذلك، فلكي تنضوي عليك أن تدفع الثمن الذي قد يكون باهضا. أضف إلى ذلك ان السياسي والحزبي لا يمتلك ان يشكل كاريزما "شخصية" جاذبة، ولا الأيديولوجيا التي تحركه مما يمكن ان يدافع عنه، ولا الدور الذي يناط به ذو اثر يذكر".

**بين الديمقراطية والدكتاتورية**

وباختلاف الفضاء تختلف العلاقة كما يرى الناقد ياسر عبد الصاحب البراك: (تتحدد علاقة المثقف بالسلطة وفقا لطبيعة النظام السياسي الذي يحكم مجتمع المثقف، فإذا كان النظام السياسي ديموقراطيا فأن شكل العلاقة يبدو شكلا سويًا على اعتبار أن النظام الديموقراطي يكفل "حرية التعبير" التي يجب أن تتوفر للمثقف من أجل أن يعبّر بواسطة إنتاجه الثقافي عن موقفه من قضايا المجتمع الذي يعيش فيه بغض النظر إن كانت تلك القضايا سياسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو أخلاقية لان المثقف الحقيقي ينبغي أن يندمج في كل قضايا مجتمعه حتى لو كانت خارج اختصاصه الأكاديمي إذا كان مثقفا أكاديميا، فالنظرة الشمولية للأحداث وتفاعلاتها مع العوامل الاجتماعية تشكل نسيجا واحدا لأية قراءة معرفية يمكن أن ينُجزها المثقف عن مجتمعه، فيكون في المجتمعات الديمقراطية مكرّسا لدولة القانون والمؤسسات، ومناصرا لحقوق الإنسان، ومحافظا على مكاسب النظام الديموقراطي الذي وفر له كل هذه الحريّات، ولذلك لا يمكن الحديث في مثل هذه الأنظمة عن علاقة توتر بين السلطة والمثقف إلا في حدود ضئيلة جدا لا تتعدى الاختلاف في طريقة فهم الأنظمة والقوانين وشكل التعبير عن الحريات الفردية، بينما في الأنظمة الشمولية ذات الطابع العسكرتاري نجد أن علاقة المثقف بالسلطة تتركز في شكلين من أشكال العلاقة، أولها: الاندماج مع مشروع السلطة والترويج له عبر وسائل الثقافة المختلفة كما هو الحال في الأنظمة الفاشية والنازية التي بدأ مثقفوها يتحدثون عن "الأدب الفاشي" و"الأدب النازي"، وثانيها: المعارضة المباشرة للسلطة القائمة من قبل المثقفين وهذا يؤدي إلى ثلاثة احتمالات "القتل والتصفية الجسدية وفي اقل الاحتمالات السجن لسنوات طويلة للمثقف، أو اختيار المنفى القسري والهروب خارج الوطن، أو الصمت"، وفي كل تلك الاحتمالات يكون المثقف مستهدفا من قبل السلطة، سواء كوجود، أو كحرية تعبير، لذلك يمكن القول أن علاقة المثقف بالسلطة في الأنظمة الشمولية علاقة ذات طبيعة غير سويّة لأنها قائمة على الإقصاء والتهميش والإرهاب الفكري الذي يحد من فاعلية المثقف في المجتمع).. وفي وضعنا العراقي نجد أن المثقف يقف على مفترق طرق، ففي زمن الدكتاتورية البعثية كان المثقف "وأقصد المثقف غير المندمج بمشروع السلطة" لا يستطيع التعبير عن أي رأي أو حقيقة إلا عبر المنفى، في الوقت نفسه لم يكن هناك أحد يسمعه لأن النظام الدكتاتوري فرض طوقا من الحصار الإعلامي والثقافي على الشعب العراقي، أما الآن فإن المثقف العراقي في العصر الديمقراطي يمتلك قدرة التعبير وحريته ولكنه لا يمتلك "قدرة التأثير" بسبب الفوضى التي تعم البلد، فأصبح المثقف العراقي في كلا الزمنين غائبا ومهمّشا، باستثناء أولئك المثقفين من الانتهازيين الذين تجدهم في كل زمان ومكان، فهم أسياد الثقافة في العصرين، وهذه إحدى مآسي الثقافة العراقية الراهنة. "يتبع".